

نبض المدينة

زهيف، فياض *

■ 1- بعض الطروحات الفكرية في العمارة راهناً، وعلاقتها بالآرث المني في المشرق العربي

1-1- علينا أن نتوقف عند هذه الطروحات الفكرية الراهنة، في العمارة وفي البناء، لنظهر القيم التي تخترتها، ولنحدد الموقف منها ومدى نفعنا منها، وعلاقتها بترانثا.

الطرح الفكريّ الحاضر في الإعلام بكل وسائله، هو السّديّ بِسرّز العمارة راهناً، كمنهج تقنيّ يخرجه التكنولوجيا المتقدمة. يحقّق هذه العمارة رأس المال الكبير، والملكئة العقارية الكبرى. ويكتفي رأس المال في ذلك، بإعادة إنتاج ذاته، خالياً من أي قيمة. إنها حتّى في البناء يدفع فيها رأس المال بالتكنولوجيا إلى أعلى درجاتها. فقبضُ (بضمّ التاء) الخرسانة على ارتفاع 450 متراً. ويُنخلّ (بضمّ الياء) المني بالهيكل العولاني، ليصل إلى ارتفاع ألف متر... هذا في العمارة البرجيّة.

أما الرّجّاج، فهو للخلاف، وللدراج، وللأرضيات، ولخسوة الجدران، ولإنتاج القواطع العملية المقاومة للرصاص.

الرّجّاج لكل شيء، واستثناء، لوظيفته الرئيسية، أي الشفافية، والوضوء، وتواصل المجالات المبنية مع الخارج.

■ وماذا عن المعمار ريكاردو ليغوريتا في المكسيك؟ وهل ثقة شك في انتماء أعماله إلى الثقافة المكسيكية العميقة وتُرجّح هذه الطروحات، وتجسده هذه المباني؟

■ أية حاجة تلبّي؟ ونحن نقنّع الهند؟ وعن المعمار جفري باوا في سرّي لانكا؟

■ 3-1- ثمة استنتاجات تُفرّض نفسها: 1- الطروحات الفكرية السائدة في عمارة اليوم (العمارة البرجية النموذجية) تسوّف بفعل أدوات من أية حاجة تلبّي؟ وعلينا أن نثقي السلال متديلة أمام الوجهات، لننظف زجاجها من أطنان الغبار المتجمع فوقه؟

■ سنسلّم، بأنّ التكنولوجيا تقدّمت. وبيانا سنقف مفتونين أمام ارتفاع المباني، وقوّة مصاعدها. وبأنّ الرؤية من أعلى الأبراج، تضع المدي في متناول الإنسان، فيمتشي، ويتمنّع بهذه الرؤية الساحرة، وقد أصبحت بمتناولها.

■ إلاّ إنه علينا أن نُقرّ، بأن غطرستّها مهينة، وأن ارتفاعها المبالغ به، هو قاسمٌ، وخارج المقياس البشري.

■ والعيش في مبنى مُبالغ بارتفاعه، يُصيب الإنسان بالغبرة، والكابة، والالتواءن، وهو سيجد نفسه، معلقاً بين السماء والأرض، قلقاً على سلامته في حالات الكوارث.

■ هل نُكمل ...

■ إلا أن الطرح الفكريّ السائد، إنما استعملت مصطلحي ملامح، ومستقبلي، لأن المصطلحين يردان عند طلاب العمارة وفي بعض الكتابات، فمن الضروري توضيح المصطلحين.

■ 1-1- في المصطلحين: 1- أن نرصد ملامح مصنع ما سنبنّخ (بضمّ الياء) في المستقبل، يعني أنّ الملامح المُنظّرة، واللامح هي بصريّة، أي موجودة في شكل المصنّع.

■ 2-1- ولكن؟ هل الطروحات المعمارية

السائدة في الظاهر، هي سائدة بالفعل؟

■ ساجب عن هذا السؤال، مجموعة من الأسئلة - الأجوبة.

■ ماذا عن المعمار الفارو سيزرا في البرتغال؟ الحائز جائزة بريترز؟ هل ذراه يعنل في ظل هذه الطروحات؟ أو أنه، في أعماله، لصيق البرتغال، بلاد المستقبل. وما هذا سوى شكّل من أشكال النسخ، الذي نستطيع أن نقوم به الآن، وفي المستقبل، وفي كل زمان.

■ أما أن نستشّف في قدراتنا الراهنة، كتابه الشهير «حو عمارة».

■ وماذا عن المعمار إدواردو سوتو دوسورا في البرتغال أيضاً، تلميذ الفارو سيزرا، والسائد على خطاه؟

■ وماذا عن المعمار تاداو اندو في اليابان، واستعماله الخرسانة المسلحة في كل أعماله. بيكنّها متعاملاً مع محيطه، ومع عمارة اليابان الأصلية. بمعارفه العولاني، ليصل إلى ارتفاع ألف متر... هذا في العمارة البرجية.

■ دائماً يتحوّلنا نحن، وباحتكاكنا بحياة الآخرين، فهذا شيء آخر، يختلف كلياً عن رسم الملامح.

■ لقد عرفنا في التاريخ العربي المتراكم، محطات شعرنا فيها أنه في مجالنا السياسي، الاقتصادي- الاجتماعي، الثقافي، ثمة من يُنتج (بضمّ الياء) عمارة هي لنا، مصريّة عربية، أو عراقيّة عربية، أو لبنانيّة عربية، أو أردنيّة عربية...

■ لقد كانت بعض العمارة في هذه المحطات، عمارة لنا. فهي تكامل

مع أعمال الجادري في العراق

مع أعمال الجادري في العراق

مع أعمال الجادري في العراق

مع أعمال الجادري في العراق

مع أعمال الجادري في العراق

مع أعمال الجادري في العراق

مع الأمكنة عدنا، ومجالها المبنية مستعينة بما هو محفوظ في عمق ذاكرتنا، انطلاقاً من واقعنا الحالي، السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي.

■ كما يعني أيضاً، أننا نسقطها (بضمّ النون) منذ الآن على ما سننقّط في المستقبل. وهذا سوى شكّل من أشكال النسخ، الذي نستطيع أن نقوم به الآن، وفي المستقبل، وفي كل زمان.

11-2- في بعض ما نأجّر.

■ تلك كانت عمارة حسن فتحي في قرية القرية في مصر وقد أرادها المعمار الغد، للأمكنة حيث شدت، بناسيها وبتاريخهم. أرادها رداً واضحاً، على الانهيار بالمواد الغربية المتدفقة على البلدان العربية ومنها مصر، بعد الحرب العالمية الثانية.

■ وقد استمرّت هذه المحطّات المضيئة ونموذجاً لمقاومة السطوة الغربية على كل مقدّراتنا، باسم الرقي، والتقدم، وحقوق الإنسان.

■ لقد عُثرت (بضمّ العين) عمارة حسن فتحي لاحقاً. عهّرها كثر، فحافظوا على غلافها، وحافظوا على ملامحها الأصلية، وعهّروها في أساليب الانتفاع بها. فصارت بيوت الفقراء في مصر بكل ملامحها، قصوراً فخمة، ومكفئة، ومُزخرفة، وملاى بأخر سرعات الأثاث الغربي الفاخر.

■ تخفي خلف ملامحها حياة ترف وتبذير، لا علاقة لها بهذه الملامح.

■ لم تعد هذه العمارة، ملاحج تلبّي حاجتي الساكنين القاعدية بالعودة إلى الجادري، النفعيّة والرمرية، المستقبلي؟ قريباً، أو بعد حين؟

1-1- العمارة في المشرق العربي والمستقبل

■ علي أن أقول بداية، إنه من غير الممكن بالفكر المعماري وحده، معالجة مسألة إنتاج عمارة عربية أصيلة، متحرّرة من التبعية والنسخ السائدين الآن. فهذه العمارة المُنظّرة، ستكون الجزء المرئي من مجالنا الاقتصادي الاجتماعي. ولن نستطيع إنجازها إلا بإنتاج مبكّي في الحزب الوطني القومي، فنحزّر المعمار الاقتصادي الاجتماعي، ونحزّر معه مجالنا الثقافي، وننتج بالتالي عمارتنا، الوطنية العربية، جزءاً مكوّناً من هذا المجال الثقافي الوطني المحزّر.

■ لا بدّ أذاً، من توصيف مجالنا الاقتصادي الاجتماعي، منتج العمارة عندنا اليوم، ومن البحث في السبل الآيلة إلى تغيير هذا المجال، ونهيجة الظروف لإنتاج عمارة وطنيّة عربية. ولكن ساتوقف بداية عند بعض ما اعتبرته «مصطلحات».

11-1- الخطاب المعماريّ الراهن

■ في الخطاب المعماريّ العالميّ الراهن، لا وجود لأقطاب متفاوتة القوى. هناك فقط مركزي واحد، وإن تعددت الرؤوس فيه، ويقرّر، والأطراف من حوله تنبّع، وتنسخ، لأنها إنما أعدت لذلك.

■ والأطراف هذه (ونحن منها)، ليست أسيرة ماضيها كما يزعمون، بل على العكس من ذلك، إنها لا تهتمّ بماضيها بدرجة كافية، وهي غالباً لا تعرفه، فنحن نعرف كل شيء عن سببقي هامشياً، لا ينفذ إلى عمق المشاعر الوطنية والقومية.

■ 1-1-2- لا مجال للتفاعل في ظل معاداة: القطب - الأطراف. إنها الكولونيالية الموصوفة، وحده الكولونيالي برمقرّته وعُصريّته، يملك المعرفة، والمهارة، والقدرة، له وحده، تعود قيادة الشعوب نحو الرفاهية ... نحو«الحدأة». وينديئ بعد الفرعونية، وبعها الرومانية والبيزنطية، وصولاً إلى الباروك، والمانيري، وروكوكو، والأريديكو، وبدائية الحدأة، والأرنوفو، ثم الحدأة في انتصارها وسقوطها ... وكل التيارات بعد ذلك.

■ ولكن؟ ولكن؟ هل نعرف جيداً أن

الأصل الفرعوني استلهم عمارة سوسر وبابل؟ والأغريقي استلهم الفرعوني؟ والنهضة في أوروبا هي عودة مفتوحة إلى الكلاسيكية الرومانية؟ استلهمت الإغريقية؟ هل نعرف الكثير عن العمارة العربية في لبنان...

■ كما تكرّرت مع أعمال قحطان المدفي، وقحطان غوني في العراق أيضاً، ومع بعض أعمال عاصم سلام في لبنان...

■ ليست ملامح عمارة عربيّة هذه، وإن شأينا بعض النسخ أحياناً. إنها إحساس عميق بعمارة بغدادية عربية أصيلة، نشعر به ونحن نتمنّع بمعهد تدريب ذوي المهن الصحيّة الأطراف (ونحن منها)، هي فعلاً أسرة ماضيها في العمارة؟ أكثر مما هي عليه روما، وباريس، وفيينا.

■ هل نسي لوكوربيوزيه اناعة العمارة الإغريقية؟ ونسي ثروس العمارة التي نقرأ لعمارة الحدأة؟ ولماذا علينا نحن أن ننسى اناعة العمارة الفاطمية؟ ونسي دروس العمارة المملوكية؟ في تفتيشنا عن حدأة تكون لنا؟ حدأة مكنة؟ لا حدأة كولونيالية؟ كما تقول رضوى عاشور.

■ يصوروننا هكذا، لنستمرّ في تبعيتها لهم، ولجملوننا ورز هذه التبعية، وليأخذوا بداية دور المرئي، والقائد، الذي لا يبرئ إلا الخير، هؤلاء الذين يعيّنون في ظلّمات ماضيهم.

■ فريكارديو ليغوريتا لا يعيش في ماضي المكسيك، مكسيك ما قبل المذابح والاحتلال الإسباني، بل ينقل هذا الماضي بأحاسيسه إلى عمارة مكسيكية ينتجها اليوم، ولا شكّ في أنها مكسيكية.

■ والفارو سيزرا وإدواردو سوتو دوسورا، ينتجّون عمارة أصيلة من المُنظّرة، ستكون الجزء المرئي من مجالنا الاقتصادي الاجتماعي. ولن نستطيع إنجازها إلا بإنتاج مبكّي في الحزب الوطني القومي، فنحزّر المعمار الاقتصادي الاجتماعي، ونحزّر معه مجالنا الثقافي، وننتج بالتالي عمارتنا، الوطنية العربية، جزءاً مكوّناً من هذا المجال الثقافي الوطني المحزّر.

■ لا بدّ أذاً، من توصيف مجالنا الاقتصادي الاجتماعي، منتج العمارة عندنا اليوم، ومن البحث في السبل الآيلة إلى تغيير هذا المجال، ونهيجة الظروف لإنتاج عمارة وطنيّة عربية. ولكن ساتوقف بداية عند بعض ما اعتبرته «مصطلحات».

11-1- الخطاب المعماريّ الراهن

■ في الخطاب المعماريّ العالميّ الراهن، لا وجود لأقطاب متفاوتة القوى. هناك فقط مركزي واحد، وإن تعددت الرؤوس فيه، ويقرّر، والأطراف من حوله تنبّع، وتنسخ، لأنها إنما أعدت لذلك.

■ والأطراف هذه (ونحن منها)، ليست أسيرة ماضيها كما يزعمون، بل على العكس من ذلك، إنها لا تهتمّ بماضيها بدرجة كافية، وهي غالباً لا تعرفه، فنحن نعرف كل شيء عن سببقي هامشياً، لا ينفذ إلى عمق المشاعر الوطنية والقومية.

■ 1-1-2- لا مجال للتفاعل في ظل معاداة: القطب - الأطراف. إنها الكولونيالية الموصوفة، وحده الكولونيالي برمقرّته وعُصريّته، يملك المعرفة، والمهارة، والقدرة، له وحده، تعود قيادة الشعوب نحو الرفاهية ... نحو«الحدأة». وينديئ بعد الفرعونية، وبعها الرومانية والبيزنطية، وصولاً إلى الباروك، والمانيري، وروكوكو، والأريديكو، وبدائية الحدأة، والأرنوفو، ثم الحدأة في انتصارها وسقوطها ... وكل التيارات بعد ذلك.

■ ولكن؟ ولكن؟ هل نعرف جيداً أن



راسم بدران، قصر الحكم، (الرياض)



بريهوت، الأفتناس بعد الاستقلال

ورنزويباو، وهرتزوغ ودمورون، وريم كولهاس، ورافاييل مونيو... أما العمارة التي نصلنا من بلدان المركز، فهي عمارة منمّطة كأنماط الأزياء، أو كأنماط جراحة التجميل، تتركز نفسها وصولاً إلى درجة الاستنساخ الجاف، وهي حتّى في البناء، خالية من أي رمز أو تعبير.

■ 11-2- ومقارنة بهذا الفهم المفترض للمجال الاقتصادي الاجتماعي، في بلدان المركز، ما هو الاختيار الاجتماعي المكنّ، في بلدان الأطراف المختلفة؟

■ كيف نفهم المجال الاقتصاديّ مجتمعاتنا مستعملة، تحوّلها مجتمعاتهم باستمرار. وعلى العمارة، فكراً وممارسة، أن تعالج المجال الاجتماعي المتحوّل هذا، والمحدّد في المكان وفي الزمان. وينقسم عالم اليوم كما أراه، إلى مركز مسيطر كما سبق وذكرته، وفقراء الهند ليسوا أسرى أي ماض، وعمارة راج ريوال هي عمارة هندية بامتياز تبني اليوم، كلّ هؤلاء وغيرهم، ينتجّون عمارة من خارج سطوة القطب الواحد، إذ رفضوا وإن جزئياً، أن يكونوا أطرافاً يدورون في فلك هذا القطب.

■ 11-1- إن جدلية الأقطاب (إذا صحت)، تفرّض وجود قطبين، وهناك كما ذكرت قطب واحد وأطراف تابعة.

■ كما أن جدلية الأضداد هي غير موجودة أيضاً، وهي من صنع المستشرقين. أو أنها من صنع القشرة التي تقفّض القطب المركزي، وتوهّمت بأنها صارت جزءاً منه، وعملت بهذا الوهم دون أن تدرك أنها ستبقى هامشيّة، وكل ما تبنينا سببقي هامشياً، لا ينفذ إلى عمق المشاعر الوطنية والقومية.

■ 11-1-2- لا مجال للتفاعل في ظل معاداة: القطب - الأطراف. إنها الكولونيالية الموصوفة، وحده الكولونيالي برمقرّته وعُصريّته، يملك المعرفة، والمهارة، والقدرة، له وحده، تعود قيادة الشعوب نحو الرفاهية ... نحو«الحدأة». وينديئ بعد الفرعونية، وبعها الرومانية والبيزنطية، وصولاً إلى الباروك، والمانيري، وروكوكو، والأريديكو، وبدائية الحدأة، والأرنوفو، ثم الحدأة في انتصارها وسقوطها ... وكل التيارات بعد ذلك.

■ ولكن؟ ولكن؟ هل نعرف جيداً أن

يجب أن نلظر بموضوعة إلى الناتج بلدان المركز، بعيدا عن الانبهار، والنسخ السطحيّ للآرام

■ أغامر فأقول، إنها موصافاً تنبعا المطقة، التي لا أرى خروجاً منها إلا بالمقاومة، أو بالممانعة كحدّ أدنى (مستعملاً صيغة راتجة)، وصولاً إلى تطبيق ظروف التبعية على الأقل، والاختيار الاجتماعيّ المتأخّ لنا في مواجهة كل ذلك، هو اختيار المجتمع المقاموم (المجتمع الممانع) (مكرراً استعمال صيغة راتجة).

■ 11-3- 3- وكما افترضت، أن الظروف المحيطة، في المنتج المعماري، ألا عندما تتنّ السيطرة الكاملة على المشروع المعماري عندها، وعندها فقط، يمكن للعمارة أن تصبح قيمة ثقافية حقيقية.

■ وهذه العمارة المقترضة، ينتجّها اليوم في بلدان المركز، بعض المعماريين العالميين «النجوم» (نورمان فوستر، وريتشارد رودجرز، وجان نوفل، ودومينيك بيو، والميناع). وذلك كما تبني عندنا

الأصيلة كما جاءت في أعمال رؤاها وفي كتاباتهم، وفي بعض أعمال الإفتناس الناجحة عندنا. مقارنة موضوعية، ابتداءً بمنطلقاتها الإنسانية، وخطمها الطوباويّ بتعميم أسس واحدة لتنظيم المدينة، ومغامهم واحدة لإنتاج العمارة، تساهم في رفع مستوى حياة الناس، كل الناس. وانتهاءً بما الت إليه في الواقع، من تعميم العمارة الطرن الدوليّ النافهة، التي تهدم اليوم في أكثر من مكان.

■ والتوقف عند التيارات التي سادت ترأخ الحدأة منذ بداية السبعينات، مثل ما بعد الحدأة (تشارلز مور، وروبيرت فتوري، وماكل غرافيس، وجيمس سترلينج، والتفككية (بيتر ايزنمن، ويرانر تشومي، وزها حديد، ودانجيل لبيسكند، وكوب هيلنبلو، والمينمالية (انطون بريودك، ولويس براغان، وماتياس غويترز)، والتعبيريين الجدد (هانس شارون، ومبارت برنس، وفيليب ستارك، ورفا إريسن، وسانتاغيو كالاترافا)، والعمارة الأيكولوجية، (مانكل هوكنز، ونيكولا غريمشو) والعمارة المؤقتة، والعمارة التي شخصب قريبة من مفهوم الخدمات... وغير ذلك من النظريات.

■ والتوقف النهجي المطول، عند بعض الأعمال النموذجية الراهنة، كما في اليابان (شادا أندو)، أو في المكسيك (ريكارديو ليغوريتا)، وفي بعض بلدان أمريكا اللاتينية (البرازيل، لوتشيو كوستا وأوسكار نيمير، وفي كوبا، وكولومبيا، والبيرو، الإسماني الأصل خوسيه لويس سرت)، أو في بعض بلدان أوروبا (فلندا، الفار التريغال، الفارو سيزرا وإدواردو سوتو دمورا)، أو في الهند (تشارلز كوزيا، وراج ريوال)، أو في سرّي لانكا (نجيري باوا)، ومنها دون أن ننسى الوطن العربي، مصر (حسن فتحي)، والعراق (محمد سالم وجورج ريس وجاك ليجيه بليز).

■ وتهدف هذه المقاربة المقلّقة، في متابعة تطور العمارة في بلدان المركز، إلى تعرف معارينا وطلاب الفكر الفالتي، تمارسه كل سائل في العمارة عندنا، على التيارات المسيطرة في عمارة اليوم، بطريقة موضوعية، تبعد عنهم الإرهاب الفكريّ الفالتي، تمارسه كل سائل الإعلام، والمعلوماتيّة. كما تهدف إلى إخراجهم من دائرة الانبهار، وتسلّمهم بفكر النسخ، وبمنهج التحليل، كما تهدف أخيراً إلى إرشادهم، كي يكتشف كل منهم طريقته، في التعامل المجدع مع الأفكار السائدة في الثقافة المقلّعة، وفي الفكر المعماريّ المغولم بصورة خاصة.

■ 1-1- الاستنتاجات واضحة، والمهم منها: 1- أن نقطع حبل التبعية، وأن نسلّق راسلنا جزءاً من ثقافتنا بالفعل لا بالقول.

■ وأن ننظر بموضوعة إلى الناتج المعماريّ في العالم كله، لا في بلدان المركز، بعيداً عن الانبهار، والنسخ السطحيّ الفارغ.

■ وأن نساعد بثقة، شخصيتنا الوطنية، فننتج معارنا مستلهمين حاجات مجتمعنا.

■ معمار لبناني *